

العمارة والمدينة الإسلامية عند المستشرقين

مقاربة في تحليل العلاقة وتوصيف الموقف

Architecture and the Islamic city for the Orientalists

An approach to relationship analysis and situation description.

أمزيان وسيلة¹

طالبة دكتوراه جامعة بن يوسف بن خدة 1

amezianewassila01@gmail.com

د. ليليا شنتوح

جامعة بن يوسف بن خدة 1

l.chentouh@univ-alger.dz

تاريخ الوصول 2020/12/27 القبول 2021/12/15 النشر على الخط 2022/03/15

Received 27/12/2020 Accepted 15/12/2021 Published online 15/03/2022

ملخص:

إنّ المتتبع للدراسات الاستشراقية حول الشرق المسلم يجدها في تطور وتزايد مستمر، ويلحظ أنّ اهتمامها بالعالم الإسلامي هو اهتمام دقيق لم يتجاوز أي مجال في هذا العالم إلّا وتناوله بالدرس والبحث الدقيق، ومن الواضح أنّ هذه الدراسات منذ القرن التاسع عشر ميلادي وجّهت بحوثها إلى الحضارة الإسلامية وكلّ ما يتعلّق بمنجزاتها، فانتشرت الدراسات حول المدينة والعمارة الإسلامية، باعتبارها المظهر المادي للحضارة الإسلامية.

ومن المهم من الناحية الأكاديمية أن يكون الباحث مطلعاً على الآراء الاستشراقية، ذلك أنّها بمثابة قراءة للذات في مرآة الآخر، من هنا كانت هذه الدراسة قائمة حول تحليل العلاقة بين المدينة الإسلامية وعمارتها وعرض أهم المواقف الاستشراقية في هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: العمارة الإسلامية، المدينة الإسلامية، الاستشراق

Abstract:

Anyone who follows Orientalist studies of the Muslim East finds it in continuous development and growth, and finds that his interest in the Islamic world is a delicate interest which has not gone beyond any area in this world except for its study and its careful research, and it is clear that these studies since the 19th century AD have directed their research towards Islamic civilization and all that relates to achievements. This civilization and studies have spread over the city and Islamic architecture.

Academically, it is important for the researcher to familiarize himself with Orientalist points of view, because they come back to being read in the mirror of the other. Therefore, this study was based on the analysis of the relationship between Medina and Islamic architecture and on the presentation of the most important orientalist positions on this subject.

Key words: Islamic architecture, Islamic city, Orientalism.

البريد الإلكتروني: ameizianewassila01@gmail.com

¹ - المؤلف المراسل: أمزيان وسيلة

1. مقدمة:

ركز الاستشراق على الشرق عموماً والعالم الإسلامي بوجه الخصوص، وجعله تحت مجهر الدراسة من كل جوانبه، وأخذ يُحلَّل ويستكشف جميع تفرعاته ولم يُهمل أي مجال يندرج ضمن دائرة الإسلام أو التراث الإسلامي.

وتُعتبر المدينة الإسلامية نتاجاً مميزاً للحضارة الإسلامية، فهي تتطور بالتوازي مع الفكر والثقافة الإسلامية، وهي في الوقت ذاته نموذج منفرد تطور بفعل عوامل إسلامية متعددة، هي في النهاية تعبير عن المظاهر المادية للحضارة الإسلامية.

وقد اهتم المستشرقون على اختلاف تخصصاتهم بموضوع المدينة والعمران في العالم الإسلامي، ففي المدرسة الفرنسية تجد أغلب المنشغلين بهذا المجال من المؤرخين والجغرافيين، وفي الاستشراق الأمريكي المعاصر دخلت مسألة المدينة الإسلامية وعمارتها إلى محابر علم الاجتماع...، وفي الاستشراق الإنجليزي اهتم باحثو العلوم الإسلامية بخصوصيات المدينة الإسلامية التي تميزها عما سواها... وهكذا كان حضور مسألة العلاقة بين الإسلام والمدينة في الفكر الاستشراقي حضوراً قوياً، وتباينت المواقف الاستشراقية في هذا المجال بين من يربط علاقة وثيقة بين الإسلام والتمدن مثل المستشرق الأمريكي جوستاف غورنباوم G.E.Von.Grunebaeum الذي ذهب إلى أن "الإسلام لو تأملت تشريع لرأيت أنه يتمثل صورة لحياة المدن... فحيثما حل الفاتحون المسلمون أسسوا المدن..."¹، وبين من ينفي أي فضل للإسلام في إنشاء المدينة البشرية وتطوير التمدن الإنساني، مثل المستشرق هاموند Mason Hammond الذي يعتبر أن "الحضارة الإسلامية ضدّ حركة التمدن"²

من جملة هذه الأفكار تتضح أماناً إشكالية هذه الدراسة وهي: كيف تشكّل العمارة الإسلامية أحد أهم ثوابت الحضارة الإسلامية من وجهة نظر الدراسات الاستشراقية؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية أسئلة فرعية نذكرها:

ماهي العلاقة بين العمران والتمدن الإسلامي؟

ما هو موقف المستشرقين من العمارة الإسلامية؟

ماهي الركائز والمسلمات التي انطلق منها المستشرقون في تأسيس هذه المواقف؟

ويكتسب الموضوع أهميته من حيث أنه يركّز على البحث في أحد حقول الدراسات الاستشراقية المهملة إلى حد ما في العالم الإسلامي، وهو جانب الدراسات الحضارية كونها جزء من التراث الإسلامي. كما يعمل البحث على توجيه الدراسات الأكاديمية نحو تحليل الموقف الاستشراقي من العمارة الإسلامية، وعلاقتها بالتمدن الإسلامي من خلال تحليل مسلماتهم في هذا المجال.

وتقتضي طبيعة هذا الموضوع استخدام المنهج التاريخي والمنهج الوصفي لإيراد موقف المستشرقين من المدينة الإسلامية.

و طبيعة الموضوع تستوجب تقسيمه إلى المحاور الآتية:

مصطلحات البحث.

المدينة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الإسلامية في الفكر الاستشراقي.

الموقف الاستشراقي من العمارة الإسلامية بين الإيجابية والسلبية.

¹ <https://m.anabaa.org> زكي ميلاد، الإسلام والمدينة من المنظورات الإستشراقية،

² محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، د.أ، ص8

2. العمارة والمدينة الإسلامية عند المستشرقين. مقارنة في تحليل العلاقة وتوصيف الموقف.

1.2. مصطلحات البحث:

العمارة الإسلامية:

لغة: العمارة هي ما يعمر به المكان ، وهي نقيض الخراب، والعمارة: أجر العمارة. والعمارة: القبيلة والعشيرة¹. والعمارة مفرد جمعها: عمارات وعمائر وهي مبنى كبير فيه جملة من المساكن، وهي ما يعمر به البلد من تمدن. والعمارة: الحي العظيم تنفرد بضغنها وإقامتها ونجعتها، وجمعها عمائر²، وعمر المال نفسه يعمر وعمر عمارة، وأعمره المكان واستعمره فيه، جعله يعمره، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾³، أي أذن لكم في عمارتها، واستخراج قومكم منها، وجعلكم عمارها، والمعمّر: المنزل الواسع من جهة الماء والكأ الذي يقام فيه، قال طرفة بن العبد: يالك من قبرة بمعمّر. ³ وجمعها عمارات وعمائر مبنى كبير فيه جملة مساكن في طوابق متعددة وهي تشييد وبناء وإصلاح وتعمير، عكسه هدم وخراب. ⁴ فن العمارة: هو فن تشييد المنازل ونحوها وتزيينها وفق قواعد معينة، وعلم العمران: هو علم الاستيطان البشري ويشمل تخطيط وتصميم مدينة. ⁵

اصطلاحاً: هي أدب وعلم التحكم بمكونات البيئة الأساسية: الأرض والرياح والماء والشمس وعناصرهنّ من تراب وصخر وحديد وخشب وهواء ورطوبة وري وصرف وحرارة وضوء وسواها. ⁶ والعمارة الإسلامية هي: إنشاء العمائر النافعة الجميلة البسيطة وفق منهج معماري أدبي علمي فني شرعي وظيفي جمالي، ملتزم بالشرع متناسق مع البيئة مشبع لحاجات مالكة. ⁷

وفي تعريف حضاري للعمارة تُعتبر جزءاً من منظومة متكاملة للتفاعل مع الثقافة والحضارات ولا تنفصل عنها بأي حال من الأحوال، فبالإضافة إلى وظيفتها الأساسية فإنّها تعكس الهوية والدين والطائفة والعرق وغيرها كثير.. ⁸

التمدن الإسلامي:

المدينة لغة: هي الحضارة واتساع العمران، وهي المصدر الجامع، وجمعها: مدائن ومدن، واسم يثرب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمدينة مأخوذة من مدن المكان: أي أقام به، وجمعها مدائن ومدن. ⁹ وتمدن : أي عاش عيشة أهل المدن وأخذ بأسباب

¹ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت-لبنان، 1414هـ-1993م، ج4، ص606.

² محمد الأزدي الهروي: تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، ط1، بيروت: دار احياء التراث العربي، 2001، ص234.

³ - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، دط، القاهرة: دار الدعوة، دت، ص626.

⁴ - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، القاهرة، عالم الكتب، 1429هـ-2008م، مج1، ص1552.

⁵ أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، د.ب، 1429هـ-2008م، ج2، ص1552.

⁶ أحمد السراج، العمارة الإسلامية. خصائص وآثار، د.ط، مكتبة ومطبعة الطالب الجامعي، غزة-فلسطين، 1436هـ-2010م، د.أ، ص13

⁷ المرجع نفسه، ص13.

⁸ فالخ بن حسن المطيري، مسار العمارة المعاصرة وآفاق التجديد، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1433هـ-2012م، د.أ، ص155

⁹ ابن منظور، المرجع السابق، ص288-289.

الحضارة.¹ وقد ورد ذكر المدينة في القرآن الكريم في 17 آية، فجاءت بصيغة المفرد في 14 موضعاً منها قوله عز وجل: "ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى ففضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين"²، وبصيغة الجمع في ثلاث آيات منها قول تعالى: "فأرسل فرعون في المدائن المدائن حاشرين"³.

اصطلاحاً:

استعمل الفلاسفة العرب مثل ابن خلدون لفظة "مديني" بمعنى "اجتماعي" أخذوا عن اليونان الذين كانت المدينة عندهم مظهر الاجتماع المنتظم المتحضر، إذ يقول: "الإنسان مديني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة... وهو معنى العمران"⁴ والمدينة: هي حقيقة مادية مربية في المظهر الأرضي من حيث الكثافة السكانية والكتلة البنائية والبعد التاريخي والحيثية الإدارية. والمدينة تاريخياً تعد وحدة تشكيلية قديمة خبرها المجتمع الإنساني منذ زمن يرجع إلى 7 آلاف سنة، فهي أعظم منجزات الإنسان الحضارية.⁵ وقد اشترط الباحث الاجتماعي: هوزر Hauser⁶ في تحديده شروط المدينة توافر الكثافة السكانية في حجم السكان، والتقدم التكنولوجي ومدى الإمكانيات والسيطرة على الظروف الطبيعية وتطورها، وتطور المؤسسات الإنتاجية والاقتصادية والسياسية.⁷

● الاستشراق:

لغة: تتفق أغلب التعاريف اللغوية بالتقريب على أن كلمة استشراق مشتقة من مادة شرق، شرقت الشمس شرقاً وشرقاً.⁸ اصطلاحاً: تضاربت التعاريف الاصطلاحية لمصطلح الاستشراق وتباينت المواقف منه، فيعرفه إدوارد سعيد مثلاً بأنه: أسلوب من الفكر القائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب وهو نتاج لقوى ونشاطات سياسية معينة.⁹ ويعرفه علي النملة بأنه: "مصطلح أو مفهوم مفهوم عام يُطلق عادة على اتجاه فكري يُعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة"¹⁰.

مجمع اللغة العربية: إبراهيم

¹ أحمد الزيات_حامد عبد القادر وآخرون، المعجم الوسيط، د.ط، دار الدعوة، د.ب، د.ت، ج2، ص859.

² القرآن الكريم، سورة القصص، الآية 15.

³ القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية 53، و للتفصيل يُنظر: مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، د.ط، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م، د.أ، ص353_355.

⁴ قسطنطين زريق، في معركة الحضارة. دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري، ط1، دار العلم للملايين، بيروت_لبنان، 1964م، د.أ، ص31، نقلاً عن المقدمة، ابن خلدون، ص41.

⁵ لويس ممفورد، المدينة على مر العصور. أصلها وتطورها ومستقبلها، مراجعة وتقديم: إبراهيم نصحي، د.ط، المركز القومي للترجمة، القاهرة_مصر، 2016م، ج1، ص15.

⁶ Philip Houser فيليب هوزر : عالم اجتماع أمريكي (1909م_1994م) من مؤلفاته: الأزمة السكانية.

⁷ عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدينة العربية الإسلامية، د.ط، د.دار نشر، بغداد، 1986م، د.أ، ص298.

⁸ محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، 2004م، د.أ، ص911.

⁵ إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة_السلطة_الإنشاء، ترجمة: كمال ذيب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984م، د.أ، ص214.

¹⁰ علي بن إبراهيم النملة، كنه الاستشراق، ط3، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت_لبنان، 2011م، د.أ، ص28.

والملاحظ أن تعاريف الاستشراق كثيرة لا يمكن إحصاؤها وعليه نعتبر أن الاستشراق اليوم اختلف عن الاستشراق في بدايته، وبالرغم من أنه لم يحد عن كونه اهتماما بالشرق من غير الشرقيين، إلا أنه توجه إلى التخصصية في العلوم، وإلى الأكاديمية في المعارف.

2.2. المدينة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الإسلامية عند المستشرقين:

إن الحديث عن العمران والمدن الإسلامية هو في أساسه حديث عن انطلاقة قوية للحضارة الإسلامية، وحديث عن انتشار واسع للإسلام. وتبدأ نشأة المدينة الإسلامية من يثرب حين هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، فمع تلك الهجرة بدأ بتهيئة المجتمع الإسلامي الجديد لحياة حضارية، إذ شرع في تنظيم حياة الجماعة وإلغاء قوانين الجاهلية السائدة آنذاك، ومن الناحية المادية كانت المدينة قبل الهجرة إليها مجرد محلات سكنية، وأسواق تعددت أهميتها، كما احتوت على السقائف التي كانت تمثل ديوان القبيلة حيث يجتمع أهلها للتشاور في أمورهم، لكن حالتها العمرانية تغيرت تغييرا جذريا جعلها مركزا حضاريا متكاملًا، فكان المسجد الجامع هو نواة هذه المدينة الجديدة، وتواصل عمرانها واتصلت المباني لتصبح كيانا معماريا واحدا.¹ واستكمالا لمرافق المدينة العمرانية اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بإنشاء السوق..... فجعل للمدينة سوقا واحدة²

لم يكن هناك خلاف في فكرة أن الإسلام ظهر في الصحراء، لكن العصر الإسلامي الأول كان يُمثّل فترة الذروة في ازدهار وتطور المدن والفكر التمدني، وسواء كان الحديث عن مدن أنشأها المسلمون أو مدن فتحوها يبقى الجوهر هو ربط خصائص الإسلام باعتباره دين التوحيد بفكرة ابتكار مدن جديدة أو تحديد مدن قديمة، كما كان الحال في بلاد الرافدين ومصر والشام وغيرها، وأغلب هذه المدن التي طورها المسلمون كانت رومانية وبيزنطية. من هنا كان السؤال الأكثر طرحا هو: كيف استطاع إنسان الصحراء أن يُشيد هذا الكم الهائل من المدن؟ وكيف تسوّى له أن يتمدّن في فترة وجيزة؟.

لقد تضاربت الآراء في البحث وراء هذا الدفع التمدني المتميّز، لتتفق في الأخير أغلب الدراسات الإسلامية مثل: ماكتبه ابن خلدون في "مقدمته"، وكتاب "سلوك المالك في تدبير الممالك" لعلي التمام وكتاب "الكمال" لأحمد بن محمد بن الربيع، و"الأحكام السلطانية" للماوردي، وكتاب: "بدائع السلك في طبائع الملك" لابن الأزرق وغيرها... على أن جملة من العوامل السياسية والحربية والتجارية تلاقت فيما بينها بفضل الإسلام فكان نتاجها: تأسيس المدينة الإسلامية وعمارتها المتميّزة³. لكن الموقف لم يكن هو ذاته بالنسبة للمستشرقين فقد أخذ الاهتمام بهذا المجال حيزا كبيرا في الخطاب الاستشراقي، فبدأ من كتابات الرحالة الغربيين عن المدن الإسلامية، وأخبارهم بالطابع المعماري في العالم الإسلامي، ولنا في هذا أمثلة كثيرة مثل كتاب: "القاهرة مدينة الفن والتجارة" للحجستون فييت، وكتاب: "وصف مصر" لنابليون بونابرت.

ويمكن القول أن اهتمام المستشرقين بهذا الموضوع انقسم إلى قسمين: منهم المنبهر الذي كتب إعجابا بمدن شرقية زارها، ومنهم الدارسون للمدن الإسلامية اجتماعيا، دينيا، ثقافيا، معماريا، فتجدهم غالبا ما يقدمون دراسات مقارنة بين مدن الشرق المسلم والمدن الأوروبية. وقد كان "تجسّد الإسلام بقوة في المدينة، حيث تحظى ممارسة الدين بأفضل الظروف، قد ساهم في وضع المدينة وحضارتها في المقام الأول من

¹ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص 45_48.

² المرجع نفسه، ص 8.

³ محمد المعتمد، المدينة الإسلامية وخصائصها، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، 1400هـ_1980م، العدد 2، ص 219_220.

اهتمام المستشرقين¹ بل وتعدّى الوضع هذا إذ أكدت جانيت أبو لغد أنّ الصورة التي رُسمت لحقب طويلة من الزمن حول المدينة الإسلامية هي في الحقيقة صورة شكلها الفكر الاستشراقي الذي ألف وكتب عنها آلاف الكتب.²

ومن المدارس الاستشراقية التي اهتمت بموضوع المدينة الإسلامية نذكر المدرسة الاستشراقية الفرنسية من خلال مراكزها البحثية نحو: مركز البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي في "إكس" الذي يُعنى بتاريخ المدينة ، و"بيت الشرق المتوسطي" في ليون الذي يُعنى بوجه خاص بالدراسات التاريخية والمورفولوجية... وقد تميّزت الدراسات الفرنسية في هذا المجال بأنّها اهتمت بدراسة المدن الإسلامية بناءً على التأثير بتطور المدن الفرنسية والإيطالية، وقد كان تركيز هذه الدراسات بالأساس على دور المؤسسات المدنية داخل المدن العربية.³

وفي إيطاليا بدأ الاهتمام بهذا المجال في كلية العمارة في باري منذ التسعينات، وفي ألمانيا اهتمت فرق البحث بدراسة مدن الشرق الأوسط منذ الثمانينات خاصة في جامعة فردريش ألكسندر وجامعة توبنغن... أمّا في الولايات المتحدة الأمريكية فقد بدأت الدراسات حول المدن والعمارة الإسلامية مع بحث أوليج جرابار، وبات الاهتمام بالهندسة الإسلامية والشكل المدني هدف العديد من العلماء، ومراكز البحوث مثل: ريناتا هولود في مدرسة الفنون والعلوم بجامعة بنسلفانيا، ومركز UCLA لدراسات الشرق الأدنى في كلية تاريخ الفنون في لوس أنجلوس... وفي إسبانيا بدأ الاهتمام بهذا الموضوع في ثمانينات القرن الماضي حين عمل فريق من الإسبان بالشراكة مع فريق فرنسي بحثاً حول المدن الأندلسية والمغربية، حيث كان هذا البحث تحت إشراف المركز الثقافي الفرنسي في مدريد.⁴

وفي أمريكا ظهر علماء اجتماع اهتموا بالمدينة الإسلامية ، فكان الملاحظ على هذه الدراسات الأمريكية أنّها اهتمت بالمدن العربية على مر العصور، ولم تحل حتى المدن الحديثة، وهذا خلافاً لأغلب الدراسات الإستشراقية التي ركزت فقط على المدينة في عصورها القديمة، لكن على اعتبار أنّ هؤلاء الدارسين كانوا علماء اجتماع لم يكن يهمهم التدقيق في تاريخ المدن ونشأتها لأنّها مجرد نماذج حضارية، فقد كان اهتمامهم يتجه نحو دراسة المشكلات التي تواجه المدينة موضوع الدراسة، والتحديات التي تترصد حركة التمدن فيها، ومن أشهر المستشرقين الأمريكيين الذين اهتموا بمثل هذه الدراسات التمدنية نجد: جيسم روجرز J.M.Rodgers الذي كتب عن مدينة سامراء ، وليم سبنسر William 5Spencer الذي اهتمّ بالتمدن في شمال إفريقيا... وغيرهم⁶

¹ أندري رمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة_مصر، 1991م، د.أ، ص13.

² سلمى الخضراء الجيوسي، ص67.

³ عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، ص300.

⁴ يُنظر: سلمى الخضراء الجيوسي_ريناتا هولود وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت_لبنان، 2014م، د.أ، ص72_80.

⁵ من مؤلفاته: الجزائر في عهد رياس البحر(بحي مراد ، معجم أسماء المستشرقين، د.معلومات، ص689، الموقع: www.alkotobarabia.com وليم سبنسر: مفكر أمريكي، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة فلوريدا

عبد الجبار ناجي، الاستشراق الأمريكي ودراسة المدينة العربية الإسلامية، المجلة الالكترونية الوسط،

⁶ العدد1533، تمّ النشر بتاريخ: 16 نوفمبر 2006م، تمّ الإطلاع عليه بتاريخ: 19 أكتوبر 2020م، الموقع: www.alxasatnews.com للتفصيل

لقد اتفق المستشرقون ومنهم الفرنسي جورج مارسيه George Marcais¹ على تقسيم تاريخ العمارة الإسلامية إلى أربع فترات، تبدأ الأولى من منتصف القرن 7م إلى غاية نهاية القرن التاسع الميلادي 9م، والثانية من القرن العاشر الميلادي 10م وتستمر إلى ما يقارب 250 سنة، أما الفترة الثالثة فحددت من القرن الثالث عشر 13م إلى القرن 15م، والفترة الرابعة امتدت إلى حوالي أربعة قرون...² سنتبين هذه الأفكار من خلال تحليل مواقف بعض المستشرقين.

3.2. الموقف الاستشراقي من العمارة والمدينة الإسلامية بين الإيجابية والسلبية.

اهتمّ المستشرقون بالعمارة الإسلامية كأحد أجزاء التراث الإسلامي، "وقد كان اهتمامهم منذ نهاية القرن 19م مقصوراً على وصف الآثار الإسلامية وتحقيق تاريخها ونشر صور موضحه لها، ثمّ بدأ الاستقصاء والبحث عن المصادر الفنية لتلك الآثار وأصولها"³. ويمكن اجمال تلك المواقف في موقفين الأول سلبي والثاني إيجابي.

الموقف السلبي:

مع تزايد اهتمام الدراسات الاستشراقية بفن العمارة الإسلامية تطورت البحوث لتصبح دراسات مقارنة، تقارن بين عناصر العمارة الإسلامية، وزخارفها بفنون معمارية أخرى كالفنون الساسانية والهندية والرومانية... ومع أهمية مثل هذه الدراسات إلا أنّ السمة البارزة فيها هي الإقرار بمسلمات مسبقة، والسعي وراء تقصي أدلة لإثباتها، وعن المدينة أجمع أغلبهم على عدة مسلمات أهمها: أنّهم أنكروا على المسلمين امتلاكهم مدينة ذات خصائص إسلامية، وأنهم لم يضيفوا أي شيء يذكر للمدن التي فتحوها، وأسسها من قبلهم مثل حلب ودمشق... إضافة إلى أنّ المسلمين لم يقوموا بشيء في هذا المجال إلا بتقليد المدن الرومانية ومدن أوروبا في العصور الوسطى، وعندما أرادوا إضافة شيء إلى هذه المدن لم يقوموا إلا بتشويهها وتقسيم وحدتها.

ومن هنا اتفقت هذه الدراسات المعارضة على تجريد المدن الإسلامية من أصالتها ووصفها بأنها مدن غير منظمة. وهذه المسلمات تتفق جميعها على تجريد العرب والمسلمين من أي فضل في تأسيس عمارتهم الإسلامية.⁴ ففي كتاب لويس ممفورد Louis Mamford⁵ : "المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها" على سبيل التمثيل لا الحصر، وهو واحد من أهم ما كُتب في التاريخ العمراني الإنساني نجده يتجاهل العمران والمدن الإسلامية بشكل رهيب، فلم يذكر ولو مدينة إسلامية في كتابه، "كما لو أنّ المدن الإسلامية تأسست وسكنت خارج العمران البشري، بل خارج التاريخ البشري نفسه"⁶

¹ George Marcais جورج مارسيه: (1876م-1962م) مستشرق فرنسي، اهتم بتاريخ العرب والمسلمين، من آثاره: الفن الإسلامي والعمارة، العمارة الإسلامية في المغرب، تاريخ المغرب الديني (نخب العقلي، المستشرقون، ج1، ص285-286).

² يُنظر: شريف يوسف، فن العمارة الإسلامية اتجاهات وتأثيرات، د.ط، د.دار نشر، د.ب، د.س، د.أ، ص11-17

³ يحي حسن وزيري، رؤية المستشرقين للعمران الإسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، د.ب، د.عدد، ص1.

2- يُنظر: أحمد الصاوي، التحيزات الاستشراقية ضدّ العمارة الإسلامية. الموقع: www.c.Ksu.edu.sa/node/8527

⁵ Louis Mamford لويس ممفورد: مؤلف أمريكي وُلد سنة 1895م، اهتم بالفن المعماري وتخطيط المدن، من مؤلفاته: تاريخ مصر في عصر البطالمة والرومان، النظم الدستورية الإغريقية (لويس ممفورد، المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها، ترجمة: المركز القومي للترجمة بإشراف إبراهيم نصحي، القاهرة-مصر، 2016م، ج1، ص: ط في المقدمة المترجم

⁶ سلمى الخضراء الجيوسي -ريناتا هولود وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، 2014م، ج1، ص35.

ينطلق الموقف الاستشراقي السلي ضدّ العمارة الإسلامية والتمدن الإسلامي من مسلمة مفادها أنّ الفرد الإسلامي لا يمكنه الابتكار، وليست له القدرة على إبداع أي شيء جديد، وأنّه إنسان بدوي بالفطرة لا يمكنه التمدن بأي شكل من الأشكال، فيجعل أغلب المستشرقين التابعين لهذا الاتجاه من هذه الفكرة مسلمة يبحثون لها عن مبررات، فعلى سبيل المثال يذهب المستشرق كلود كاهن 1Caud Cahen إلى أنّ " الكثير من سمات ما يسمى المدينة الإسلامية في الواقع هي صفات وسمات المدينة البيزنطية وصفات المدينة الإيطالية قبل القرن 11" 2 وقد كان بهذا مسرفاً في تجريد المدينة الإسلامية من أي صفة مدنية مستقلة.

إذ يلحظ المتتبع لتاريخ العمارة الإسلامية أنّ المسلمين في العهد الأموي اشتغلوا على الاستفادة من مختلف أنواع الطراز المعماري المنتشر آنذاك، وإضفاء طابع الدين الإسلامي عليها بما يتماشى مع مقاصد هذا الدين، فأنشؤوا فناً معمارياً إسلامياً متميّزاً من خلال تلك الأمزجة والتحويلات، وهو الحال ذاته أثناء الخلافة العباسية إذ استفاد المسلمون أيضاً في العراق وفارس من عمارة البابليين والآشوريين... وحورها بما يتوافق مع عقيدتهم الإسلامية، وهذا الأمر أذى بالمستشرقين إلى الحكم على المسلمين بأنّ لا فنّ عمارة لديهم، وأنهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنّهم استولوا على الطابع المعماري لحضارات سبقتهم.³ وفي السياق ذاته وفي بحوث أجراها المستشرق إيجن ويرث 4Eugen Wirth حول مدن شمال إفريقيا وغرب آسيا استنتج أنّ إطلاق الوصف الإسلامي على هذه المدن خطأ، فمثلاً نمط المنازل ذات الفناء كان موجوداً سابقاً في بلاد ما بين النهرين، وأكد أنّ خاصية واحدة هي التي ميزت هذه المدن عن نظيراتها في الشرق القديم أو في أوروبا وهي خاصية السوق لكنّها لا ترتبط بالدين الإسلامي، والخصائص ذاتها التي نجدها في هذه المدن بالإمكان ملاحظتها في مدن تركيا وإيران وعليه فإنّ مصطلح عربي أيضاً كوصف لهذه المدن غير صحيح، وقرّر أخيراً بأنّ الوصف الأصح هو مدن شرقية.⁵

في دراسة أجراها المستشرق كريزول Creswell⁶ على مبنى قبة الصخرة قام بتقسيم عناصرها وزخارفها إلى أجزاء أرجع كلّ جزء إلى عمارة معينة غير العمارة الإسلامية، فخلّص إلى نتيجة مفادها أنّ: هذا المبنى يتكون من 22 بالمائة من المصادر الرومانية و22 بالمائة من المصادر البيزنطية و55 بالمائة من المصادر السورية المسيحية أمّا 1 بالمائة المتبقية فلم يذكر مصدرها.⁷ وهو بهذا لا يتعدّ كثيراً عن تيار المستشرقين المؤكدين على أنّ الفرد المسلم عموماً لا يتمتع بحسّ الإبداع أو الابتكار في أي مجال، إذ يؤكد أنّ العرب ما قبل الإسلام لم يكن لديهم إلّا أفكار باهتة أو بدائية في البناء والعمارة وأنّ بلاد العرب كانت تمثل فراغاً معمارياً يكاد يكون تاماً.⁸

¹ Caud Cahen كلود كاهن: (1909م-1991م) مستشرق فرنسي متخصص في تاريخ الشرق الأدنى من آثاره: الإسلام، شمال سورية في عصر الحروب الصليبية وهي رسالة دكتوراه (عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، 1993م، د.أ، ص460_461).

² محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، د.أ، ص9.

³ يُنظر: شريف يوسف وآخرون، فن العمارة الإسلامية. اتجاهات وتأثيرات، د.ط، د.دار نشر، د.ت، د.أ، ص12_14.

⁴ Eugen Wirth ويرث: كاتب أمريكي، من أعماله: "مدن إسلامية، مدن عربية، مدن شرقية، إشكالية التغيير" (سلمى الخضراء الجيوسي وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ص66)

⁵ يُنظر: سلمى الخضراء الجيوسي وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ص66.

كريزول: مستشرق إنجليزي وُلد سنة 1879م، مختص في العمارة الإسلامية، من آثاره: الحصون في الإسلام، فهرست الفن المعماري الإسلامي، موسوعة الفنون

⁶ Creswell.K.A. الإسلامية (نجيب العقيلي، المستشرقون، ط3، دار المعارف، القاهرة-مصر، 1965م، ج2، ص569_570).

⁷ يحي حسن وزيري، رؤية المستشرقين للعمارة الإسلامية، المرجع السابق، ص4.

⁸ المرجع نفسه، ص4.

ويرى كريزول Creswell نفسه أنه مع ظهور الإسلام لم تحتوي الجزيرة العربية على أية آثار تستحق تسمية : فن العمارة، وفي حياة محمد صلى الله عليه وسلم كان الحرم مجرد بناء بسيط مؤلف من أربعة جدران، وداخله يقع بئر زمزم المقدس، وقد اعتمد كريزول في هذا الرأي على كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من آثار للمؤرخ الأزرقى، والذي يعتبره كريزول أقدم مؤرخي مكة¹. حتى أنه تساءل عن أصل الطراز المعماري للكعبة، أي عن فكرة الطبقات المتتالية من الحجر والخشب لأنه بحسبه بلاد الجزيرة العربية ينذر فيها الخشب، فرجّح بعد تحليلات مطولة أنّ هذا الطراز تطوّر في بلاد الحبشة لأنّ الخشب يكثر فيها، وفيها تكثر نماذج من هذا البناء مثل: كنيسة دير السيبانوس، وسرعان ما يعود ليفنّد رأيه بأنّ أقدم هذه الكنائس لا ترجع حتى إلى القرن 9م، لكنّه يتمسك بأنّ ذلك الطراز المعماري أول ما وُجد كان في الحبشة².

وفي نقطة أخرى يستمر كريزول Creswell في السياق ذاته وهو إبعاد الأصالة الفنية المعمارية عن الإسلام والمسلمين فيتطرق إلى فكرة المآذن، ويقرّر جزافاً إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بلالا أن يؤذن من أعلى سطح في المنطقة أسوة ببوق اليهود أو ناقوس النصارى³.

كما ربط كريزول Creswell نفسه ولادة العمارة الإسلامية بالفتوحات الإسلامية، فقرّر أنّ الجيش الإسلامي كان مكوناً من رجال الحضر المكيين والمدنيين ومن رجال البدو وكلاهما لم يكونوا فن العمارة بحسبه، ففوجئوا عندما دخلوا سورية، وهي التي تأثرت لأقرب من 1000 عام بالتأثير الهيلينستي. وفوجئوا مرة أخرى عندما دخلوا العراق، وهو الذي خضع للتأثير الفارسي لفترة طويلة، فذهب إلى أنّ المسلمين عندما فتحوا هذه البلاد حولوا كنائسها إلى مساجد بإحداث بعض التغييرات في الجدران والمداخل حتى تتلاءم مع قبلة المسلمين، إلّا أنّهم في العراق توجهوا إلى إنشاء مدن جديدة وهو الأمر الذي لم يفعلوه في سورية.

يخلص كريزول Creswell بعد تحليلات كثيرة للكعبة والمساجد الإسلامية في العراق وسورية وفلسطين ومصر وغيرها إلى أنّ العرب قبل الإسلام لم يصلوا سوى إلى مفاهيم سطحية وجدّ بسيطة في البناء، وفي فتوحاتهم الأولى لم يأتوا بفن عمارة إسلامية للبلاد التي فتحوها، فأعلى درجات فن العمارة عند المسلمين لم يكن سوى خيمة، وقرّر أخيراً أنّ كلمة عربي لا يجب أن تقتصر بفن معماري، ذلك أنّ العرب والمسلمين بحسبه لفترة طويلة من الزمن لم يظهروا أية رغبة في تطوير أشكالهم المعمارية ولا حتى الاستفادة من الفنون المعمارية للدول التي فتحوها⁴.

ركّز المستشرقان وليام مارسيس William Marcasis⁵ وجورج مارسيس Goerge Marcasis حول بنية المدينة الإسلامية، لكنّهما اقتصرتا في هذا البحث على نموذج مدن شمال إفريقيا دون غيرها، وعملاً على تعميم نتائج هذا النموذج على جميع المدن الإسلامية، في مقابل خصائص المدن الأوروبية فخلصا إلى نموذج المدينة الإسلامية التي بحسبهما دائماً ما يتوسطها مسجد وسوق ومجموعة أحياء عمرانية غير منظمة، وهذا الرأي القائل: بلا عقلانية المدينة الإسلامية والعشوائية التي تخلو من أي تخطيط تبنّاه بعدهما الكثير من المستشرقين مثل

¹ يُنظر: ك. كريزول، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عيلة، ط1، دار قتيبة، دمشق-سورية، 1404هـ-1984م، د.أ، ص13.

² يُنظر، المرجع نفسه، ص14_15.

³ يُنظر: المرجع نفسه، ص17_18.

⁴ يُنظر: المرجع نفسه، ص19_32.

وليام مارسيس (1874_1956م) مستشرق فرنسي اهتمّ خصوصاً باللغة العربية وتاريخ الجزائر. من آثاره: الإسلام والحياة المدنية، ترجمة صحيح البخاري (عبد

⁵ William Marcasis الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، 1993م، د.أ، ص547).

روبرت برنشفيف Robert Brenschfig ، وفي إطار منهجية التعميم التي عادة ما يعتمد عليها المستشرقون في دراساتهم حول الإسلام والتراث الإسلامي، عمل المستشرق غوستاف غرونباوم Grunebaeum. G.E.Von¹ على نظريات الأخوان مارسية وأضاف إلى نظريتهما غياب التنظيمات المؤسساتية كما هو معروف بالمعنى الأوروبي.

لكن جاء المستشرق إدموند باوتي Edmond Pauty² في خمسينات القرن العشرين بتصحيحات حول النماذج التي عمل عليها وليام وجورج مارسية مُستندا إلى عامل الإسلام كدين يدعو إلى التمدن، فميّز بين المدن المنظمة التي أسسها الملوك والقادة المسلمون، وبين المدن العفوية.³

ومع أنه لا يمكن إنكار الجهود الفردية من طرف بعض المستشرقين في العمل على توسيع دائرة البحث حول المدن الإسلامية، إلا أنّ الطابع الغالب على الدراسات الاستشرقية في هذا المجال إلى غاية ستينات القرن العشرين استمرّ في الاقتصار على مدن شمال إفريقيا وتعميم النتائج على مدن العالم الإسلامي.⁴

خطأ آخر يقع فيه المستشرقون في دراساتهم للمدينة الإسلامية هو إخضاع هذه الأخيرة لمعايير غربية وتغيب المعايير الإسلامية فتكون النتائج سلبية، فمثلا نجد المستشرق ستيرن M.samuel.Stern⁵ يؤكد: "أنّ المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات المدنية لأنّ المجتمع الإسلامي لم يرث أيا من المؤسسات المدنية عن الحضارات القديمة اليونانية والرومانية، كما أنّ الإسلام لم يطور أيا من هذه المؤسسات"⁶ فرائيه هذا يُبين أنّه في انطلاقة الأولى لدراسة مدن إسلامية قام بتجريد هذه المدن من إسلاميتها فغيّب فكرة الإسلام تماما، والدليل هو أنّه لم يشر إلى وجود تشريع إسلامي يقوم بديلا عن القوانين الرومانية واليونانية، فأخذ يدرس المدن الإسلامية بعد بترها من قاعدتها الأصلية وهي الإسلام.

وفي السياق ذاته تؤكد فئة أخرى من المستشرقين أمثال م. كلارجي⁷ و ج. سوفاجي Jean Sauvaget⁸ أنّ المدينة الإسلامية تفتقر إلى التنظيم الذي هو جوهر مفهوم المدينة، لذا فهي مدينة مصيرها إلى الزوال والانحطاط، وأكد سوفاجي على أنّ المرحلة الإسلامية لم يكن لها أي نتائج إيجابية على الصعيد المدني، إذ حوّل برأيه المدن إلى مجموعات مفككة من الأحياء لا أكثر⁹. وهو ذاته ما يذهب إليه المستشرق

غوستاف غرونباوم: مستشرق نمساوي ولد سنة 1909م. من آثاره: الشعر العرب، الإسلام والثقافة الإنسانية (يُنظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، Grunebaeum. G.E.Von ص 1020_1021).

Edmond Pauty² إدموند باوتي: من مؤلفاته: مدن تلقائية ومدن مؤسسة في الإسلام (سلمى الخضراء الجيوسي وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ص 60).

³ يُنظر: سلمى الخضراء الجيوسي وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ج 2، ص 52_61.

⁴ المرجع نفسه: ص 63_65.

² ستيرن: مستشرق مجري (1920_1969م). تم الإطلاع بتاريخ: 15 أكتوبر 2020م. <http://wikipedia/orM.Stern>

⁶ محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 8.

م. كلارجي: دّرس في الجامعة المصرية، من آثاره: خصائص بعض المدن العربية في الشرق في العصر الوسيط_تركيا في حاضرها ومستقبلها (نجيب العقيلي،

⁷ M.Clarget المستشرقون، ج 1، ص 250).

ج. سوفاجي: مستشرق فرنسي اهتم بالتاريخ والآثار العربية، من آثاره: المدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي (عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين،

⁸ Jean Sauvaget ص 356).

⁹ سلمى الجيوسي وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ص 109_110.

ستبرن إذ يعتبر أنّ المؤسسات التنظيمية للمدن نشأت في الحضارات اليونانية والرومانية ولم ترثها عنها الحضارة الإسلامية.¹ وتبيّن من رأيه هذا أنّه في انطلاقتها الأولى لدراسة مدن العالم الإسلامي غيّب فكرة الإسلام تماماً والدليل أنّه لم يشير إلى وجود تشريع إسلامي، والذي هو بديل عن القوانين الرومانية واليونانية، فاسترسل في دراسة المدن الإسلامية بعد بترها من قاعدتها الأصلية وهي الإسلام. وفي إطار النقد الداخلي للاستشراق اعتبر أندري ريمون **Ander Rymond**² أنّ " التفكّك الذي تحدّث عنه سوفاجي هو وليد قراءة سلبية لانقسام المدينة إلى وحدات منفصلة".³

الموقف الإيجابي:

ذهب المستشرق موريس لومبارد **Mouris Lombard**⁴ إلى أنّه منذ القرن الثامن إلى الحادي عشر ميلادي شهد العالم الإسلامي توسعا حضاريا ضخما، هذا التوسع تجسّد في بداية الأمر ببعض المدن ثمّ تنامي باضطراب حتى صار الأكبر في العالم.⁵ كما أشاد باهتمام الإسلام بالتمدن مقارنة بعصور التقدم السابقة عليه، تحدّث المستشرق موريس لومبارد **Mouris Lombard** عن انتشار العمران وطابع الحياة المدنية في الإسلام بإسهاب وتفصيل في كتابه الإسلام في مجده الأول، فحلّل وفسّر كيف " كان العالم الإسلامي خلال الفترة بين القرن الثامن، والقرن الحادي عشر مسرحا لحركة هائلة من العمران في المدن"⁶، لقد ربط هذا الانتشار في العمران والمدن بالفتوحات الإسلامية والحركة التجارية والاقتصادية، فيشير إلى أنّ هذا التوسع العمراني كان خلال الفترة بين القرن 2 هـ_5 هـ، ويتعرّض بالبحث إلى أهمّ المدن التي اعتُبرت مركزا للحضارة الإسلامية فيبحثها من جميع النواحي: الجغرافية، الاجتماعية، الاقتصادية، الديمغرافية بل يتجاوز هذا إلى البحث في العناصر العقديّة التي شكلت طابع الفكر الديني في هذه المدن قبل الإسلام، فينطلق في الحديث مطولا عن فتح بلاد النهرين، وتشيد البصرة والكوفة فيها لتصبحا بعد أقل من ثلاثين سنة نموذجا لنمو نادر في تاريخ المدن البشرية، ويؤكد أنّ الفتوحات الإسلامية في البلاد البيزنطية أو الفارسية أي فتح سورية ومصر، الهند شمال إفريقيا ، يؤكد أنّ المسلمين بهذه الفتوحات وجدوا مدنا مشيدة فأضافوا عليها الطابع الإسلامي كما أنّهم شيّدوا مدنا جديدة وأنشأوا طرقا تجارية جديدة فقد غيرت هذه الفتوحات خريطة العالم الإسلامي، واكتسحت اللغة العربية جزءا كبيرا من رقعة العالم، وتطورت حركة التبادل التجاري⁷

¹ محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق ، ص8.

² Raymond أندري ريمون: مؤرخ فرنسي، وأستاذ التاريخ العربي والإسلامي وبجامعات الفرنسية، من آثاره: الأحياء الأرستقراطية، أحياء القاهرة الشعبية (أندري ريمون، المدن العربية الكبرى في العهد العثماني، ترجمة: لطيف فرج، د. ط، دار الفكر للدراسات، د. ب، د. ت، ص 10_11_12).

³ المرجع نفسه، ص 135.

⁴ موريس لومبارد **MOURIS Lombard** : مؤرخ فرنسي (1904م_1965م) اختص في تاريخ الإسلام في العصر الوسيط، من آثاره: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي (موريس لومبارد، الإسلام في مجده الأول، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، دار الأفاق الجديدة، المغرب، 1977م، د.أ، ص 3_4)

⁵ محمد عبد مزوك، قراءة في رؤية المستشرقين للمدينة الإسلامية وعمارتها، مجلة ديالى، د. ب، 2011م، العدد 53، ص 13.

⁶ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى 5 هـ (8_11م)، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، دار الأفاق الجديدة، المغرب، 1411 هـ_1990م، د.أ،

ص 181

⁷ للتفصيل أكثر يُنظر: موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص 181_218.

ويتطرق المستشرق كريستيان نوربيرغ شولز Schulz¹ إلى أصالة العمارة الإسلامية فيقول: "العمارة الإسلامية بسبب سماتها الأزلية والعامة، قد بقيت طوال قرون حياتها وفي تباين الأمكنة والأزمنة، وتحت مختلف الظروف المتبدلة ساعية تنبض بالحياة، كما أنّها بقيت مفتوحة تجاه التكيف وفق الظروف، إنّها ومن غير أن تتخلى عن مميزات العربية الأساسية قادرة على الانسجام بالصفات المحلية الخاصة كالفارسية والمصرية والمغربية والهندية والتركية"² وهو بهذا ينتمي إلى الاتجاه الإيجابي من المستشرقين الذين أكدوا على أصالة العمارة الإسلامية واعترفوا بأنّ المدينة الإسلامية ذات كيان مستقل

وفي السياق ذاته يتحدث المستشرق جورج مارسيسه Goerge Marcais على أنّ الفنون الإسلامية عموماً بما فيها العمارة قد اتخذت لنفسها طابعاً خاصاً يميزها عن بقية الفنون فقال: "... وعلى مرّ المئات من السنين استطاع الفن الإسلامي صياغة نفسه في أعمال فنية مميزة وخاصة به، بعيداً تماماً عن الأنساق القديمة"³ ويقصد بهذه الأنساق فنون العالم القديم خاصة في غرب آسيا، التي كانت موطن الحضارات القديمة والتي اعتبرت مهد الفن الإسلامي، فيؤكد وهو يتحدث بمصطلح الفن الإسلامي والذي يندرج الفن المعماري ضمنه على أنّه اتخذ لنفسه طرازاً خاصاً أصيلاً يختص به وحده مثل ما وُجد في دمشق ومصر... بعد الفتوحات الإسلامية.

وبما أنّ الحديث عن العمارة الإسلامية هو حديث عن نتاج حضاري ذي قيمة، فقد أرجع فئة من المستشرقين هذه العمارة لخصائص العالم الإسلامي ذاته، فذهبوا إلى وجوب التماس "أسباب هذا التطور في العمران في عدد من الخصائص الاجتماعية والدينية التي يميّز بها العالم الإسلامي كالأهمية التي أضفها الإسلام على العمل إلى جانب الإيمان، ممّا شجّع الناس على القيام بنشاط اجتماعي، وقيام نظام الأوقاف أو الحبوس الذي حثّ الناس على إقامة منشآت خيرية ومؤسسات اقتصادية عديدة كان يباركها الدين ويحميها من المصادرات"⁴ أكد المستشرق لسر يعقوب Lassener Jakob⁵ أنّ الامتداد المتسارع للعواصم العباسية لم يشهد التاريخ البشري مثالا له من قبل في تلك المنطقة، فباحساب سامراء نجده تجاوز التطور العمراني في العهود الساسانية بأربعة أضعاف.⁶ كما أكد أنّ نشوء الأمصار الإسلامية لم يكن متأثراً بأي مؤثر خارجي، إنما كانت ذاتية عربية خالصة.⁷

ويذهب المستشرق أندري ريمون Andre Raymond إلى أبعد نقطة في الاتجاه الإيجابي حين يسلط الضوء على مدن عربية وإسلامية وصلت إلى ذروة تطورها في العصر العثماني، وقد سار في هذا المنحى مُناقضاً للاتجاه الاستشراقي القائل بأنّ هذا العصر شهد ركوداً في تطور المدن العربية الإسلامية، فاعتبره أندري ريمون من أطور عصور المدينة الإسلامية بثلاثة أو أربعة قرون⁸....

كريستيان نوربيرغ شولز: مهندس معماري نرويجي (1926م-2000م)، أستاذ في النظريات المعمارية والتاريخ المعماري، من أهم مؤلفاته: نحو ظاهرة في (،

¹ schulz العمارة الإسلامية عمارة التوحيد، ترجمة محمود حمدي، مجلة المورد، بغداد، 1993م، مجلد 11، العدد الأول، ص 81.

² شولز كريستيان نوربيرغ، العمارة الإسلامية عمارة التوحيد، ترجمة محمود حمدي، المرجع السابق، ص 81.

³ جورج مارسيسه: الفن الإسلامي، ترجمة: عبلة عبد الرزاق، ط1، المركز القومي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2016م، د.أ، ص 8.

⁴ أوليج جرابار، سلسلة تراث الإسلام، ص 309

⁵ لسر يعقوب: مفكر أمريكي، 1935م أستاذ الحضارة اليهودية في جامعة نورث وسترن ومتخصص في الشرق الأدنى إبان العصور الوسطى، : من مؤلفاته:

الإسلام في العصور الوسطى موقع <http://en.wimopedia.org>

⁶ يُنظر: لسر يعقوب: خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، ترجمة: صالح أحمد العلي، د.ط، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1984، ص 283.

⁷ عبد الجبار ناجي، المرجع السابق، د.ص.

⁸ أندري ريمون، المرجع السابق، ص 21

ويعترف أندري ريمون Andre Raymond بوجود "بنية داخلية قوية تقف خلف التطور الذي شهدته هذه المدن الإسلامية وصولاً إلى الحقبة الحديثة"¹ فهو يؤكد على توافر عناصر تنظيمية في هذه المدن ساهمت في صمودها عبر الزمن.

3. خاتمة:

نصل في نهاية هذا البحث إلى جملة من النتائج نلخصها في النقاط الآتية:

- التركيز الاستشراقي على فكرة التلاحق الحضاري بين المسلمين وغيرهم بُغية الوصول إلى عدم ابداع المسلمين لفن معماري خاص بهم، وأن مدّهم كانت مجرد اقتباسات من حضارات أخرى. والمتتبع لهذه الفكرة سيجد في نهايتها أنها تقوم أساساً على ما يُعرف بالمركزية الأوروبية التي تمنح للفرد الأوروبي كل الصفات الإنسانية الإيجابية وتسلبها في الوقت ذاته من الإنسان الشرقي، وتحكم عليه بعدم القدرة على إبداع أو ابتكار أي أفكار في جميع الميادين وهذه الفكرة نجد لها صدًى واسع في الوسط الاستشراقي.
- قدّم المستشرقون المدينة الإسلامية بصورة ذات فوضوية على أنها مدن نشأت دون تخطيط مسبق ميزتها الأساسية هي العشوائية، في مقابل هذا اجتهدت هذه الفئة من المستشرقين في رفع قيمة المدن الإغريقية والرومانية ووصفها بالمدن المنظمة التي تجسّد متطلبات الإنسان المتمدن والمتحضر.
- لا يمكن الاختلاف في أنّ الدراسات الاستشراقية ساعدت بشكل كبير في التعريف بالصروح المعمارية والمدن في العالم الإسلامي، لكنّ هذه الدراسات كانت غير دقيقة ولم تستطع تفسير النقوشات والرسومات وخلفياتها التاريخية، ضف إلى هذا فقد كوّن أغلب المستشرقون مفاهيمهم حول المدينة الإسلامية من آراء انتقائية وغير مؤسسة أو مسندة إلى مصادر إسلامية موثوقة، والخطأ الأكبر هو تعميم هذه الأفكار الانتقائية على المدن الإسلامية كلها.
- احتكم أغلب المستشرقين في دراساتهم للمدينة الإسلامية والفن المعماري الإسلامي إلى أسس غالباً ما تأثرت إلى حدّ بعيد بالقوانين الاجتماعية والسياسية... التي قامت عليها المدينة الغربية، لذا انتهت هذه الدراسات إلى نتائج بعيدة كل البعد عن واقع العالم الإسلامي.

4. قائمة المراجع:

1. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت_لبنان، 1414هـ_1993م
2. أحمد السراج، العمارة الإسلامية. خصائص وآثار، د.ط، مكتبة ومطبعة الطالب الجامعي، غزة_فلسطين، 1436هـ_2010م.
3. أحمد الصاوي، التحيزات الاستشراقية ضدّ العمارة الإسلامية. الموقع: www.c.ksu.edu.sa/node/852
4. أحمد سمائلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة_مصر، 1418هـ_1998م.
5. أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، د.ب، 1429هـ_2008م.
6. إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة_السلطة_الإنشاء، ترجمة: كمال ذيب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984م.
7. أندري ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة_مصر، 1991م.
8. جورج مارسية: الفن الإسلامي، ترجمة: عبلة عبد الرزاق، ط1، المركز القومي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2016م.

¹ سلمى الخضراء الجيوسي وآخرون، المرجع السابق، ص135.

9. جوزيف شاخْت_كليفورْد بوزورت، سلسلة تراث الإسلام، ترجمة: محمد زهير السمهوري_حسين مؤنس، إحسان صدقي العمْد، تحقيق: شاكِر مصطفى، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 1978م.
10. زكي ميلاد، الاسلام والاستشراق من منظورات استشراقية، الموقع: <https://m.anabaa.org>
11. سلمى الخضراء الجيوسي_ريناتا هولود وآخرون، المدينة في العالم الإسلامي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت_لبنان، 2014م.
12. شريف يوسف، فن العمارة الإسلامية اتجاهات وتأثيرات، د.ط، د.دار نشر، د.ب، د.ت.
13. شريف يوسف وآخرون، فن العمارة الإسلامية. اتجاهات وتأثيرات، د.ط، د.دار نشر، د.ت، د.أ.
14. شولز كريستيان نوربيرغ، العمارة الإسلامية عمارة التوحيد، ترجمة محمود حمدي، مجلة المورد، بغداد، 1993م، مجلد 11، العدد الأول.
15. عبد الجبار ناجي، الاستشراق الأمريكي ودراسة المدينة العربية الإسلامية، المجلة الالكترونية الوسط، العدد 1533، تم النشر بتاريخ: 16 نوفمبر 2006م، تم الإطلاع عليه بتاريخ: 19 أكتوبر 2020م، الموقع: www.alxasatnews.com
16. عبد الجبار ناجي، دراسة في تاريخ المدينة العربية الإسلامية، د.ط، د.دار نشر، بغداد، 1986م.
17. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت_لبنان، 1993م.
18. علي بن ابراهيم النملة، كنه الاستشراق، ط3، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت_لبنان، 2011م.
19. فالخ بن حسن المطيري، مسار العمارة المعاصرة وآفاق التجديد، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1433هـ_2012م.
20. قسطنطين زريق، في معركة الحضارة. دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري، ط1، دار العلم للملايين، بيروت_لبنان، 1964م.
21. ك. كرينول، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، ط1، دار قتيبة، دمشق_سورية، 1404هـ_1984م، د.أ.
22. لسنر يعقوب: خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، ترجمة: صالح أحمد العلي، د.ط، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1984.
23. لويس مففورد، المدينة على مر العصور. أصلها وتطورها ومستقبلها، مراجعة وتقديم: ابراهيم نصحي، د.ط، المركز القومي للترجمة، القاهرة_مصر، 2016م.
24. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرزآبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، 2004م.
25. محمد المعتصم، المدينة الإسلامية وخصائصها، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، 1400هـ_1980م، العدد 2.
26. محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، د.ط، دار الهداية، د.ب.
27. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.
28. محمد عبد مرزوك، قراءة في رؤية المستشرقين للمدينة الإسلامية وعمارتها، مجلة ديالى، د.ب، 2011م، العدد 53
29. مجمع اللغة العربية: ابراهيم أحمد الزيات_حامد عبد القادر وآخرون، المعجم الوسيط، د.ط، دار الدعوة، د.ب، د.ت.
30. مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، د.ط، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م.
31. موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى 5هـ (8_11م)، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، دار الأفاق الجديدة، المغرب، 1411هـ_1990م.
32. نجيب العقيلي، المستشرقون، ط3، دار المعارف، القاهرة_مصر، 1964.
33. يحي حسن وزيري، رؤية المستشرقين للعمارة الإسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، د.ب، د.عدد، ص1.
34. . يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، د.ط، د.دار نشر، د.ب، د.ت، د.أ، الموقع: www.almotobarabia.com